الاجتهاد وجدل الاستشراق

نقد وائل حلاق لمقولة "غلق باب الاجتهاد"

Ijtihad and the dialectic of Orientalism:
Wael Hallaq's critique of the saying " the gate of ijtihad closed."

كمال رمضاني[1]
جامعة الحاج لخضر باتنة 1
مخبر حوار الحضارات والعولمة
ramdanikamel2019@gmail.com
أ.د. عبد المجيد عمراني
جامعة الحاج لخضر باتنة1
Amrani_abd@yahoo.FR

تاريخ الوصول 2021/02/19 القبول 2021/07/03 النشر على الخط 2021/11/30
Received 19/02/2021 Accepted 03/07/2021 Published online 30/11/2021

ملخص:

تهدف هذه المقالة إلى كشف الآليات المنهجية والإبستمولوجية التي انطلق منها وائل حلاق لدحض أطروحات الفكر الإستشراقي من داخل معاقله ، باعتباره أداة من أدوات الاستعمار لفرض سيطرته على الشرق، ومن ذلك وقوفُه على مبدأ الفصل الذي أقامه الفكر الإستشراقي بين العلوم الإسلامية (الفقه والأصول)، وبين المجتمع الإسلامي، من خلال نَفْيِ العلاقة التفاعلية بين الفكر والواقع؛ للوصول إلى خلاصة مفادها هامشية الفكر الإسلامي وعدم اتصاله بالواقع الاجتماعي،والادعاء بغلقَ باب الاجتهاد والنظر، مما أوقع المجتمع الإسلامي في دوّامة من التخلف والتقليد والتي لم يستفق منها إلا بعد صدمة الحداثة ، التي أثارت فيه الأسئلة المحرجة إزاء الذات والتاريخ، وفتحت أعينه على منجزات الحضارة الغربية المتقدمة.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، بنية الحداثة، وائل حلاق، شاخت، سد باب الاجتهاد.

Abstract:

This article aims to uncover the methodological and epistemological mechanisms that Wael Hallaq launched to refute the theses of Orientalist thought from within its strongholds, as it is a tool of colonialism to impose its control on the East, including his standing on the principle of separation established by Orientalist thought between Islamic sciences (jurisprudence and fundamentals), and between Islamic society, by denying the interactive relationship between thought and reality; To reach a conclusion that the marginalization of Islamic thought and its lack of connection with social reality, and the claim that the door of diligence and consideration is closed, which has plunged the Islamic community into a cycle of backwardness and tradition, from which it did not recover until after the shock of modernity, which raised embarrassing questions about self and history, and opened its eyes to the achievements Advanced western civilization.

[1]– المؤلّف المرسل: كمال رمضاني البريد الإلكتروني **ramdanikamel2019@gmail.com**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Keywords: Orientalism; The structure of modernity; Wael Hallaq; *Schacht* ; the gate of ijtihad closed.

1. مقدّمة:

إن الإستشراق تيار فكري يتجه نحو الشرق من اجل دراسة حضارته وثقافته ولغته من خلال أفكار أتسم معظمها بالتعصب والرغبة في خدمة المشروع الاستعماري وذلك بنشر الدونية والشك في معتقداتهم،خصوصا وان الدراسات الإستشراقية تعتبر مصدر كثير من الغربيين لفهم الثقافة الإسلامية .

لقد سلك المستشرقون منهجا يستهدف الكشف عن الثغرات ومواطن الضعف في البنية الفكرية والمذهبية الإسلامية ، وذلك لنقض المنظومة الإسلامية وإطارها المرجعي ، واعتبارها منظومة هجينة اقتبست من غيرها من المنظومات .

يضاف إلى ذلك ، الأسطورة الإستشراقية القائلة بأن الشريعة قد توقفت عن النمو والعمل ، والذي تم التعبير عنه بمقولة "غلق باب الاجتهاد" مما يجعل العالم الإسلامي في حاجة إلى الحضارة الغربية بقوانينها ونظمها للخروج من حالة الجمود والانحدار. وكتب عبد الكريم الخطيب قائلا :« إن الإستشراق حركة ولدت في هذا العصر الحديث وهي – في ظاهرها- حركة علمية يراد بها دراسة التراث الشرقي في معتقداته وآدابه، ولكنها تبغي من وراء هذا التعرف على منابع هذا التراث، محاولة صرف أهله عنه ليولوا وجوههم شطر الغرب ويتعلقوا بركاب حضارته» [1] ويشير فيما بعد إلى أن معظم المستشرقين « قد غلبتهم العصبية على أن يقولوا كلمة الحق وأن ينطقوا بما في أيديهم من شواهد، فقد كابروا ، ولجّوا في الضلال، ورموا الإسلام بكل ما تحمل صدورهم من غل، وما تنفث أقلامهم من سم ، حتى فضح ذلك عند من لا يعرفون الإسلام من قومهم حين رأوا سباباً وشتائم لا تتفق مع منهج العلم الذي من شأنه أن يعرض الحقائق، ويترك للناس الحكم عليها، دون أن يمزجها بمرارة الحقد ، ونفثات عداوته.» [2]

وبالرغم من أن الإستشراق تناول بالدراسة والنقد أوجه عديدة من الحضارة الإسلامية في معتقداتها ونصوصها الأصلية من قرآن وسنة وسيرة نبوية ... إلا أن الأضرار التي مست الفقه ومؤسسته وفقهائه كانت له آثار كارثية ، نرى نتائجها في أوضاع وهوية المجتمعات المسلمة ، حيث يشعر المسلم بنوع من الغربة والضياع كانت من نتائجه ما نشهده من صراعات ونزاعات.يقول ابو الحسن علي الحسني الندوي « ومن دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقومون لها بجمع معلومات – من كل رطب ويابس – ليس لها أي علاقة بالموضوع ، سواء من كتب الديانة والتاريخ أو الأدب والشعر أو الرواية والقصص أو المجون والفكاهة ، وان كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها . ويقدمونها بعد التمويه بكل جرأة ، ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا في أنفسهم وأذهانهم». [3]

وهذا ما دفع بالمفكر الفلسطيني ، الكندي الجنسية وائل حلاق للرد على افتراءات المستشرقين في مجال الفقه الإسلامي، من خلال ثلاثيته حول الفقه الإسلامي.

---

[1]- عبد الكريم يونس الخطيب، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ،جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ، 1984 . ص 391.

[2]- المرجع نفسه ، ص 441.

[3]- أبو الحسن علي الحسني الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، ط3،مؤسسة الرسالة، بيروت 1985م، ص16.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومما يحسب لوائل حلاق نجاحه التوصل إلى منهجية متميزة في التعامل مع النصوص بروح نقدية تستثمر تراكما معرفيا في مجال الفلسفة والعلوم الإنسانية ، في سبيل الحفر داخل بنية الحداثة ، وهذا يعني أن حلاق وهو يساءل واقع الإستشراق ، يروم التنبيه إلى واقع مخفي يحرك التاريخ وجدلية الذات والآخر وهو واقع الحداثة.

والملاحظ انه وبالرغم من وقوف حلاق على الأرضية الفكرية ذاتها التي يقف عليها المستشرقون ويقاسمهم قيمهم الثقافية الغربية إلا انه لا يشاطرهم نظرتهم إلى الموضوعات التي يشتغلون عليها ، لذلك نجده «يوجه أعماله المعرفية على الخصوص للجمهور الغربي ، وذلك في إطار نشر المعرفة ومقاومة التشويه والهيمنة الغربية على التاريخ الإسلامي ، انطلاقا من كون أن الجمهور الأكاديمي الغربي يوجه جل اهتمامه لأعمال المستشرقين رغم ما فيها من مغالطات. .» [1]

ومن هذا المنطلق ، فقد أدرك حلاق بان نقض الرواية الإستشراقية حول التاريخ الإسلامي من خارج الأكاديمية الغربية لن يلتفت إليه أحد ، إذ «نجح الفكر الإستشراقي في تهميش جميع الانتقادات التي قدمها الكتّاب العرب والمسلمون من خارج معاقل هذا الفكر تهميشا كاملا».[2] وهذا ما يدفعنا إلى طرح إشكالية البحث : ما حقيقة ادعاء الخطاب الإستشراقي بغلق باب الاجتهاد ؟وهل تمكن وائل حلاق من التأسيس لرؤية نقدية واضحة لدحض الخطاب الإستشراقي والرد على مزاعمه بسد باب الاجتهاد ؟

إن المراجعات الكبيرة التي أستحدثها وائل حلاق "للفقه الإسلامي" باعتباره حقلًا معرفيًا فرعيًا لا يمكن تقييمها بمعزل عن السياق المعرفي الذي أنتجت فيه ، ولا بمعزل عن الأسئلة الكثيرة التي تركها الباحث مفتوحة لمن بعده للإجابة عنها لهدم قلاع معرفيّة أخرى. فأعماله الثلاث الرئيسية؛"تاريخ النظريّات الفقهيّة في الإسلام" (1997) وكتاب "تاريخ النظريات الفقهية في الإسلام"(2001) وكتاب "نشأة الفقه الإسلامي وتطوّره" (2004) ما هي إلا نقد لاذع لكتابات المنتمين إلى " الباراديغم الإستشراقي" وهم أوّل من أنتجوا أولى تراجم نصوص الفقه الإسلامي ، وأولى الأعمال التأسيسيّة حول المدارس الفقهيّة الإسلاميّة ، وأولى الدراسات الشاملة حول الفقه الإسلامي.

كما تعتبر إنتاجاته تجميعاً لأعماله الأخرى التي فصّلت مسألة تكوّن الفقه الإسلامي وأهمها :"استخدام وإساءة استخدام الأدلّة: مسألة التأثيرات الرومانيّة على الفقه الإسلامي المبكّر" (1990) "مسألة أصول أم عقيدة؟ الدراسات الفقهيّة باعتبارها خطاباً كولونيالياً (2002) "تشكّل الفقه الإسلامي وتشكّل العالم الإسلامي الكلاسيكي" (2004) "أصول وتطوّر الفقه الإسلامي: مواضيع في الفقه الإسلامي (2005).

إن مسعانا لا يتحقق ولا تتضح معالمه إلا بمعرفة الأهداف التي نتوخاها منه ومن بينها :

- تناول أنموذج نقدي عربي متميز ، يسعى إلى تفكيك اللبس الذي تراكم في الوعي الغربي تجاه الفقه الإسلامي من حيث نشأته وحقيقته وتطوره وتجلياته ، فغاية مشروعه كما يحددها بنفسه هو «زعزعة الخطاب الإستشراقي وتقويضه ومناهضته بمشروع أكاديمي منفصل بنيويا عن خطاب الهيمنة الغربي» [3]

---

[1]-وائل حلاق ، نشاة الفقه الاسلامي وتطوره ،تر: رياض الميلادي، ط1 ، دار المدار الاسلامي، بيروت 2007 ، ص314.

[2]- المرجع نفسه ،ص6

[3]- وائل حلاق ، نشاة الفقه الاسلامي وتطوره، مرجع سابق ، ص6.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- تفرده وهو يعيش في العالم الغربي بدراسات وأطروحات تختص بنقد الخطاب الإستشراقي من جهة، وإعادة قراءة تاريخ الفقه الإسلامي من جهة أخرى.
- اطلاع القارئ العربي على آخر ما كتب من بحوث حول التشريع الإسلامي في الجامعات الغربية ، لتقييم الدراسات الغربية الحديثة والمعاصرة التي اهتمت بالفقه الإسلامي وتاريخه وتطوره.

ولتحقيق ذلك المسعى سلكت في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي بإطلاعي الواسع على مختلف المؤلفات التي لها علاقة بالموضوع ، ثم المنهج التحليلي بدراسة معمقة لما جمعته من مادة من اجل الوقوف على حيثيات هذه التجربة النقدية المتفردة بغرض إثراء صلب الموضوع،حيث عالج وائل حلاق مسألة القول بسد باب الاجتهاد .

2. عرض بعض آراء المستشرقين حول مقولة غلق باب الاجتهاد:

2-1- عرض رؤية المستشرق جوزيف شاخت joseph schacht

ولد جوزيف شاخت في 15 مارس 1902م بألمانيا، ودرس اللغات الشرقية و فقه اللغة العربية واللغة السريانية ، وفي عام 1954م ترك بريطانيا وعين أستاذًا في جامعة ليدن بهولندا، وفي عام 1959م اشترك في الإشراف على الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية. وتوفي بجلطة دماغية عام 1969م إذ كان وقتها أستاذًا بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة.[1]

برز تفوق شاخت في دراسة تاريخ الفقه الإسلامي، ففي عام 1950 أخرج كتاب «بداية الفقه الإسلامي» في جامعة أكسفورد، وهو كتاب من 350 صفحة، يتناول دراسة في فقه الإمام الشافعي وكتاب الرسالة. وفي عام 1953م أخرج كتاب «مخطط تاريخ الفقه الإسلامي»، ثم «مدخل إلى الفقه الإسلامي» عام 1960م في جامعة أكسفورد .[2]

وفي مجال التشريع الإسلامي والتشريع الحديث؛ كتب شاخت عام 1932م مقالته الشهيرة بعنوان «الشريعة والقانون في مصر الحديثة: إسهام في مسألة التجديد الإسلامي». ومن بين أهم أعماله أيضاً تأسيسه مجلة «ستوديا إسلاميكا» مع المستشرق برنشفيك.

أما أهم كتب شاخت التي جمعت الآراء المثيرة للجدل في الساحة العلمية فكتاب «أصول الشريعة المحمدية» والذي تمركز بحثه فيه حول قضيتين في باب تطور التشريع الإسلامي؛ قضية أصالة الشريعة الإسلامية، وقضية موثوقية الأحاديث الفقهية، ومستجمع أفكار شخت قد لخص في كتابه "مقدمة للفقه الإسلامي".

وفي مجال توقف العلماء عن الاجتهاد يرى شاخت أن بداية القرن الرابع الهجري أغلق العلماء فيه باب الاجتهاد، وتم تقعيد القواعد لها ، وأن كل نشاط جديد يتحدد في شرح تلك القواعد التي نظمتها المدارس الفقهية، وهذا هو التقليد بعينه الذي يعني قبول ما وضعته المدارس الفقهية دون تحفظ أو نقاش وأن الذي يحق له الاجتهاد يسمى مقلدا .

---

[1] -Goldziher, I. Introduction to Islamic theology and law، Princeton University Press، New Jersey، 1981، P.5

[2]- عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين، ط3،دار العلم ، بيروت، 1993، ص: 366.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقول شاخت:«ببداية القرن الرابع الهجري ظهرت فكرة انسداد باب الاجتهاد ، حين رأى الفقهاء أن كل المسائل الضرورية قد بحثت باستفاضة واستقر القول فيها، كما بدأ يتشكل الإجماع تدريجيا حول أنه

لم يعد هناك من الآن فصاعدا ، من يملك مقومات الاجتهاد ، ومن ثم فإن دور الفقهاء سيكون منحصرا في الشرح والتنزيل والاكتفاء بتفسير الأحكام الثابتة التي أرساها الفقهاء الأوائل ، والتي ما زالت باقية لا تتغير في أقصى تقدير، وهو الأمر الذي عرف "بانسداد باب الاجتهاد" والذي عنى بدوره الدعوة للتقليد، وهذا المصطلح الذي كان يستخدم في الأساس للدلالة على ارجاع الأمر إلى الصحابة وهو ما كان معتادا عليه في المذاهب الفقهية القديمة، في حين صار معناه الآن قبول آراء الأئمة المعتبرين والمذاهب الفقهية المعتمدة دون نظر أو تفكير»[1]

وفي اعتقاد(شاخت) فان غلق باب الاجتهاد ، تم من خلال تقليص دور المفتين في تطوير الفقه الإسلامي ، وأن جهودهم لا تؤدي دور الإبداع المنوط بها ،«ويصف المفتين بأنهم لا يقدمون شيئا للفقه الإسلامي إلا مجرد الأحكام التي تقدم للناس العـاديين السائلين عنها »[2]

ويرى "شاخت" أيضا أن التقليد لم يقبل عند كثير من علماء المسلمين ك "داود بن خلف ، و "ابن تومرت " و "ابن تيمية "، ورأوا أنه لا يجوز إتباع رأي شخص في الفقه الإسلامي فيما عدا النبي وهو ما سار عليه أتباع المذهب الظاهري .

2-2- عرض رؤية المستشرق نوال كولسون ***Noel j Coulson*** ،

ولد المستشرق الانجليزي نوال كولسون في 18 أوت سنة 1928 في مدينة" blackrod" تلقى دراسته الاولى في مدينة "wigan"،ثم في كلية "keble" ،وبعدها التحق بجامعة أكسفورد، حيث تخرج منها سنة 1950 كمتخصص في اللغات الشرقية والآداب القديمة.

وهو من أكبر المستشرقين الإنجليز المعاصرين المعتنين بدراسة الفقه الإسلامي وتدريسه بجامعة لندن، تتلمذ على المستشرق شاخت، درس القانون الإنجليزي، وهو ما أتاح له القدرة على تناول مسائل الفقه الإسلامي من وجهة نظر جديدة ، ومن مؤلفاته: تاريخ التشريع الإسلامي، وكتاب في الميراث، وتحديد العلاقة بين الجوانب النظرية في الفقه الإسلامي. [3]

يرى "كولسون" أن تطور الفقه الإسلامي قد وقف عندما أغلق باب الاجتهاد ، وحل التقليد محل الاجتهاد « فأصبح كل فقيه مقلدا لمن سبقه، وقد أرجع ذلك إلى استنفاد مصادر الفقه الإسلامي» [4]، وأن عملية الاجتهاد قد انتهت على أيدي الأئمة الأربعة ، ويرى « أن منذ القرن الرابع الهجري كان دور الفقهاء لا يتعدى التعليق على أعمال أئمتهم السابقين »[5]

وما يعرضه "كولسون" من توقف للاجتهاد ، بأنه قد حصل قبل الغزو المغولي، ويرجعه إلى أسباب داخلية تمثلت في استنفاد مصادر الفقه الإسلامي ، عندما حدد الأئمة الفقهاء مضامينها النهائية، وأنه لم يبق لأحد الحق في التطوير والاجتهاد، وأن الفقه

---

[1]- جوزيف شاخت، أصول الفقه المحمدي، تر: رياض الميلادي وآخرون ، دار المدار الاسلامي ، بيروت ، 2018، ص 409

[2]- وائل حلاق ، نشاة الفقه الاسلامي وتطوره ، مرجع سابق ، ص14

[3]- نوال كولسون، في تاريخ التشريع الإسلامي، تر: محمد أحمد سراج، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1992 ص: 33

[4] - Coulson, Noel J. A History of Islamic Law, Edinburgh University Press, Edinburgh, 1964.p81.

[5]- نوال كولسون، في تاريخ التشريع الإسلامي، مرجع سابق، ص366

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أصبح مكبلا بمبدأ التقليد، وأن مهمة الفقهاء هو الشرح والتحليل والتدقيق لما سبقهم من الأئمة الفقهاء المجتهدين دون غيرهم، فالذي يظهر في هذا الأمر أنه لم يحصل جمود للفقه الإسلامي إلا حينما حلت القوانين الغربية محل الفقه الإسلامي، فمنذ ذلك الوقت انقطع الاجتهاد، وأصبحت الدراسة الفقهية مجرد عمل نظري، لا صلة له بالواقع.[1]

3. نقد وائل حلاق للمقولة الإستشراقية حول غلق باب الاجتهاد:

لقد تعرضت المقولة الإستشراقية حول الاجتهاد لانتقادات واسعة من قبل وائل حلاق وغيره من الباحثين، خصوصا وان الأدبيات الإستشراقية انتقائية ومغرضة في اختيارها للشواهد والأدلة التي تقدمها وبصورة مسبقة ، لإثبات أو التأكيد على رؤية أو نظرية جمعت وراكمت تلك الأدلة من خارج سياقاتها بل أحيانا معانيها أو وظائفها ومقاصدها واستهداف التأكيد من تكرار الاستشهاد بها والرجوع إليها ؛ لإيهام القارئ على أنها رغم أنها هامشية أو غير مهمة أو ثانوية في أحيان كثيرة- هي جوهر الموضوع.

ويؤكد حلاق على أن منهجية مغرضة انتقائية كهذه تستحق المراجعة وإعادة النظر ، والتأكد من أن النتائج التي يتم التوصل إليها تمثل واقع التفكير والآراء الفقهية وتتطابق مع الحقائق والواقع التاريخي للمجتمعات المسلمة والفقهاء. هذه الانتقائية والقصدية في تناول شواهد محددة بعينها جعله يراجع بشكل نقدي أعمال كبار المستشرقين من أمثال شاخت وجولد تسيهر؛ نظرا لأن هذه الأساليب إما دفع لاختيارها رأي أو نتيجة مسبقة أريد الانتهاء إليها .

ومن هنا فان هدف وائل حلاق، وهو من كبار الباحثين في الفقه الإسلامي الممثلين لجيل ما بعد شاخت ، هو أن يجد حلاً لمشكلة الاعتماد على مؤلفاتهما التي تمد البحث الغربي العام في الفقه الإسلامي .«حيث يرفض حلاق النظرة الإبستمولوجية العامة للبحث الحداثي من حيث هي نظرة تحكم على الماضي بمعايير الحاضر، حيث كان يُنظر إلى القرآن باعتباره نصًا أخلاقيًا لا نصًا قانونيًا، وكان ذلك يمثل عقيدة أساسية للإستشراق القانوني لأنه -القرآن- يفتقر إلى السلطات القهرية التي يتوفر عليها القانون بمعناه الحديث» [2]

لقد استخدم وائل حلاق مجموعة من أساليب النقد المعرفية والمنهجية لمقاومة النسق المعرفي الإستشراقي " orientalism paradigmatic"لان جل الدراسات الغربية المهتمة بالفقه الإسلامي تنطلق من رؤية استشرقية واحدة .[3] الأمر الذي جعل وائل حلاق يعمل، من خلال نشاطه الأكاديمي على جبهتين أولاهما جبهة البحث في النصوص القديمة التي شكّلت المنظومتين الفقهية والأصولية، فضلاً عن منظومات العلوم الإسلامية التقليدية الأخرى لاقتناص المادة العلمية المكوّنة لبحوثه، وثانيهما جبهة البحوث الحديثة التي كتبها الباحثون المحدثون والمعاصرون العرب والغربيون على حدّ سواء ؛ ذلك أنّه ما من سبيل إلى الإضافة

[1] – ينظر تعليق: محمد أحمد سراج على كتاب المستشرق كولسون: في تاريخ التشريع الإسلامي، المرجع السابق ،ص: 366

[2] - Coulson, Noel J. A History of Islamic Law, , op. cit p.67

[3] – وائل حلاق – ديفيد ستيفن باورز ، دراسات في الفقه الاسلامي :وائل حلاق ومجادلوه ، ترجمة وتنسيق: أبو بكر باقادر، مركز نماء للدراسات والبحوث ،بيروت، 2016 ، ص11

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العلمية دون اطلاع على ما كتبه معاصروه ومن سبقهم في العصر الحديث ، وهذا ما يتضح في رده على المقولة الإستشراقية السابقة الذكر.

لقد كانت الشريعة أسيرة الأحكام الصارمة التي أصدرها في حقها علماء الإستشراق، وعلى رأسهم جوزيف شاخت،« ذلك أن من المعتقدات التي كانت متغلغلة في الكتابات الغربية في هذا الموضوع ومنها كتاب شاخت ، أن الشريعة جامدة ومتحجرة ، وان مرد ذلك إلى ظاهرة عُبر عنها بعبارة (انسداد باب الاجتهاد) وهذا ما دفع وائل حلاق إلى نشر مقالة في المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط عام 1984 بعنوان هل انسد باب الاجتهاد ».[1]

ويرى حلاق أن الحديث عن إغلاق باب الاجتهاد منذ القرن الرابع الهجري أمر لا دليل عليه، بل إن الأدلة كلها قد تضافرت على دحضه ، ويقول في هذا الصدد «ويتماشى هذا التهميش تماشيا كاملا مع محور آخر يدور حول الأسطورة الإستشراقية القائلة : بأن الشريعة الإسلامية قد توقفت عن النمو والعمل بعد القرن الثاني أو الثالث من الهجرة. وعبر عن ذلك بمقولة أخرى تنص على أن باب الاجتهاد قد أغلق إلى أبد الآبدين. »[2]

ولهذه الأسباب لم يطمئن وائل حلاق إلى هذه الدّعوى الخطيرة، فطرح تساؤلات عميقة وكفيلة بنسف هذه الفكرة من أساسها :«إنْ كانَ بابُ الاجتهادِ قد انْسَدّ، فكيف نجحَ المسْلِمون إذن في العَيْش في ظلِّ حُكْمِ الشّريعةِ طوال قرونٍ كثيرةٍ جداً، بعد حُدُوث ذلك الانْسِدادِ المزعُوم؟ وإن كان بابُ الاجتهاد قد انسَدّ، فلِمَ انْسَدّ؟ ومَنْ سَدّهُ؟ وكيف سَوّغ الفُقَهاء والأصوليّون ذلك الانسداد». [3]

وليثبت حلاق خطا القول بانسداد باب الاجتهاد في القرن الرابع، فقد لجأ لإثبات هذا من حيث التنظير والتطبيق، فبقراءة الكثير من كتب أصول الفقه التي صنفت في ذلك العصر لا يجد حلاق ما يشير إلى أن الشروط التي وضعها الأصوليون للاجتهاد من الصعب توافرها ناهيك عن استحالة ذلك.

ويأخذ حلاق في تتبع المجتهدين في كل العصور ، ليثبت أنهم كانوا موجودين وكانوا يمارسون الاجتهاد بالفعل في أرض الواقع ، ويصل في غاية بحثه إلى أن الجنوح للتقليد لم يبدأ إلا في القرن العاشر الهجري لا الرابع الهجري .

ويبدأ في عرض أقوال أبي الحسين البصري ثم الغزالي وغيرهم من الأصوليين ، والتي تدور جلها حول معرفة آيات الأحكام ، وأن يكون المحكم على اطلاع بالأحاديث التي يحتاج الوصول لها ويقدر أن يميز بين صحيحها وضعيفها ، وأن يعلم كتب الفروع ومسائل الإجماع، وكيف يستنبط الأدلة من النصوص وأن يعلم العربية ، والناسخ والمنسوخ ، وهي في جل هذا لا تشترط في المجتهد أن يكون قد بلغ مبلغا كمبلغ سيبويه في اللغة أو البخاري في الحديث.

ثم يختم ذلك بقوله: «ومن ثم فإنه سيكون من المجاورة للصواب أن نفترض أن شروط الاجتهاد التي ذكرت في مصنفات العلماء المسلمين قد أدت إلى جعل الاجتهاد أمرا مستحيلا. فإن إجمالي المعرفة المطلوبة من الفقهاء قد مكنت الكثيرين من الاجتهاد في

[1] – وائل حلاق ،الشريعة : النظرية والممارسةوالتحولات ، تر: كيان احمد حازم يحي، ط1 ، دار المدار الاسلامي ، بيروت ، 2018 ،ص12

[2] – وائل حلاق ،تاريخ النظريات الفقهية في الاسلام ، ط1 ،دار المدار الاسلامي ، بيروت ، 2007 ، ص8

[3] – وائل حلاق ، الشريعة ، مرجع سابق ،ص13

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

باب من الفقه أو آخر، كما سنرى لاحقا. بل إن الفقهاء قد سهلوا باب الاجتهاد أكثر حين قالوا برفع الإثم عن المجتهد المخطئ، بل قالوا إن له أجرا عند الله، أما لو أصاب فله أجران. وإذا كان الأمر كما ترى، فإن بإمكاننا أن نقول بنوع من الثقة إن من الصعوبة بمكان أن تحمل النظرية الفقهية بما تضمنته من شروط للاجتهاد المسؤولية في تضييق مساحة الاجتهاد، ناهيك عن إغلاق بابه» [1]

ويضيف حلاق إلى ذلك دليلا آخر وهو «أن المدارس الفقهية ، ما إن أخذت في الانتظام وشرعت في ترسيخ أصولها وقواعدها ، حتى بدأت تدريجيا في إقصاء المذهب الظاهري الذي ينكر القياس – وهو أحد أهم طرق الاجتهاد– إلى خارج دائرة أهل السنة والجماعة، ولم يأتي القرن الرابع حتى كان الظاهرية قد أخرجوا بالفعل من حظيرة أهل السنة والجماعة...» [2]

أما من الناحية العملية فذهب حلاق إلى أن المجتهدين في القرنين الثالث والرابع الهجريين كانت لهم اجتهادات شخصية واضحة في الفقه، سواء أكانوا مجتهدين مستقلين أم مجتهدي مذهب، فنجد أمثلة واضحة لمجتهدين مستقلين: كابن مريح (ت: 306م)، والطبري (ت: 310هـ)، وابن خزيمة (ت: 311هـ)، وابن المنذر (ت: 316م). وقد قرر ذلك السبكي في القرن الثامن الهجري ،حين ذكر أنه وإن كانوا شافعية في الأصل إلا أنهم خالفوا الشافعي في أقواله، بل إن الطبري تعدى ذلك كما هو معلوم ليكون له مذهبه الفقهي المستقل، وكذا كان الحال في القرن الخامس الهجري: فابن عبد البر (ت: 463هـ) أفرد بابا في إنكار التقليد ذكر فيه انعقاد الإجماع على بطلان التقليد واستشهد على هذا بآيات كثيرة. وجاراه في هذا الخطيب البغدادي (ت: 463هـ)، والماوردي (ت: 450 د). [3]

4-خاتمة

تمثّل كتابات وائل حلاّق عملا مرجعيّا في قراءة تاريخ الفقه الإسلامي نشأة وتطوّرا. وتكمن أهميّة أطروحة حلاّق في مشروعه البحثي في محاولته إعادة بناء تاريخ نشأة الفقه الإسلامي وتطوّره على أنقاض أطروحة شاخت وأطروحة الاستشراق الكلاسيكي عموما. وتبدو أنّها كتابات موجّهة بالأساس للدراسات الاستشراقية الكلاسيكية المؤرّخة للفقه وأصول الفقه .

لذا فقد كان التقليد كرد فعل من بعض العلماء بسبب غلق باب الاجتهاد ، وذلك لتجنب تفكك المجتمع الإسلامي في مواجهة التهديدات التي أعقبت تدمير الدولة العباسية من قبل المغول (1258) إلا انه يجب الإشارة إلى أن التقليد لم يتوقف عن الطعن فيه من قبل الإصلاحيين. حيث دعا مفكروا تيار الإصلاح في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ومن بينهم الأفغاني ، محمد عبده ، الكواكبي ، رشيد رضا ، شكيب أرسلان ، إقبال ... إلى تجاوز المفاهيم التي أصبحت روتينية في المدارس لإحياء ديناميكيات الفكر والقانون الإسلامي.

[1]- محمد المراكبي ، وائل حلاق بين الشرق والغرب، دار المرايا للانتاج الثقافي ،القاهرة ، 2018 ، ص317

[2]- نفس المرجع ، ص318.

[3]- *Hallaq, W. (). Was the Gate of Ijtihad Closed? International Journal of Middle East Studies, 1984* .p9

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5-قائمة المصادر والمراجع

1-وائل حلاق ، نشاة الفقه الاسلامي وتطوره ،تر: رياض الميلادي، ط1،(بيروت: دار المدار الاسلامي، 2007).
2 - وائل حلاق – ديفيد ستيفن باورز ، دراسات في الفقه الاسلامي :وائل حلاق ومجادلوه ، ترجمة وتنسيق: أبو بكر اقادر، (بيروت: مركز نماء للدراسات والبحوث ، 2016)
3-وائل حلاق ،الشريعة : النظرية والممارسةوالتحولات ، تر: كيان احمد حازم يحي، ط1 ، (بيروت :دار المدار الاسلامي ، 2018)
4- وائل حلاق ،تاريخ النظريات الفقهية في الاسلام ، ط1 ،(بيروت :دار المدار الاسلامي ، 2007)
5- أبو الحسن علي الحسني الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، ط3،(بيروت: مؤسسة الرسالة، ،1985)
6-جوزيف شاخت، أصول الفقه المحمدي، تر: رياض الميلادي وآخرون ، (بيروت :دار المدار الاسلامي ، 2018)
7- محمد المراكبي ، وائل حلاق بين الشرق والغرب، (القاهرة: دار المرايا للانتاج الثقافي ، 2018)
8- نوال كولسون، في تاريخ التشريع الإسلامي، تر: محمد أحمد سراج، ط1، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1992)
9- عبد الكريم يونس الخطيب، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ،(الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1984)
10 – عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين، ط3،(بيروت :دار العلم ، 1993)

11-*Hallaq, W. (). Was the Gate of Ijtihad Closed? International Journal of Middle East Studies, 1984 .*
12-Coulson, Noel J. A History of Islamic Law, Edinburgh University Press, Edinburgh, 1964.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com